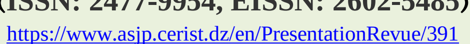

مجلة الشهاب • المجلد: 10، العدد: 01 (2024م) • ص ص 61- 80
(ISSN: 2477-9954, EISSN: 2602-5485)
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/391


موانع قبول الحق من خلال سورة الشعراء

Obstacles to accepting the truth through Surah Ash-Shu'ara

خليفة خليفة *

كلية العلوم الإسلامية - جامعة الوادي (الجزائر)

Khelifa-khelifa@univ-eloued.dz

تاريخ الاستلام: 2024/02/06	تاريخ القبول: 2024/03/06	تاريخ النشر: 2024/03/15



ملخص: أمر الله تعالى نبيَّه الكريم بالجهور بالدعوة والإعلان بها، وأنزل عليه سورة الشعراء ليعرض له نماذج لأنبياء سابقين، قد خاضوا ميدان الدعوة، وواجهوا من المعوّقات والمصاعب ما سيلاقيه صلى الله عليه وسلم، هذه النماذج هي تجسيدات لموانع بشرية حالت بين أولئك الأقوام ورسالة التوحيد التي جاء بها الأنبياء.

وقد حاول الباحث إبراز هذه الموانع وتأثيرها على الأقوام السابقين من خلال هذا البحث الذي جعله جزأيْن؛ جزء أول: عرَض فيه الباحث معلومات عامة عن السورة وسبب نزولها.

وجزء ثان: بسط فيه الباحث القول عن الموانع التي لأجلها رفض أولئك الأقوام دعوة الأنبياء (عليهم السلام).

وخلُص الباحث إلى أن تلك الموانع هي تعبير عن نوازع بشرية فطرية، طغَت وتجاوزت الحدود حتى سيطرت على تفكير الناس، وصاغَت منطقهم ومنظورهم إلى الأمور، وأن التوحيد الذي دعا إليه الأنبياء جميعا هو الضمان الوحيد لعدم طغيان هذه النوازع، والضابط لها عن التجاوز والإفساد.

الكلمات المفتاحية: موانع؛ قبول الحق؛ الشعراء؛ قصص الأنبياء.

Abstract: God Almighty commanded his honorable Prophet to speak loudly with the call and proclaim it, and revealed to him Surat Al-Shu'ara' to present to him examples of previous prophets, who entered the field of call, and faced the obstacles and difficulties that he would encounter.

The researcher tried to highlight these barriers and their impact on the former peoples through this research, which he made into two parts. The first part: in which the researcher presents general information about the surah and the reason for its revelation.

And a second part: in which the researcher elaborated on the impediments for which those people rejected the call of the prophets (peace be upon them).

* المؤلف المراسل.

The researcher concluded that these impediments are an expression of innate human impulses that overwhelmed and crossed the boundaries until they dominated people's thinking and shaped their logic and perspective on matters.

Keywords: impediments, accepting the truth, poets, stories of the prophets.

1. مقدمة

بسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومَن والاه، أما بعد:

مهما كان مبلغ أيّ دعوة من النبل، وحظّها من سلامة المنطق، ووضوح الفكرة، ونصيبها من الرقيّ والسموّ، فإن ذلك وحده لن يكون كفيلا بنجاح الداعي إليها في تبليغ دعوته، وإحداث التأثير الذي يريد، بل لا بد من أمور أخرى، أهمها هو معرفة دوافع النفس ونوازعها، مواطن القوة، ومكامن الضعف، ليحسنَ الداعي مخاطبة الناس بما يفهمون، ويجيدَ التأثير فيهم، وتكونَ دعوته بليغة ومؤثّرة.

لهذا ـ ولغيره ـ أنزل الله تعالى سورة الشعراء في فترة بدايات الدعوة الجهرية والجهاد الدعوي الحقيقي الذي أُمر به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لتكشفَ له جوانب من نفسيات الناس وأنماط تفكيرهم وما يؤثر فيهم، لِيكون النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على بصيرة في دعوته، ومعرفةٍ بما سيلاقيه من قومه ومن غيرهم أثناء تبليغه رسالةَ الإسلام.

وكعادة القرآن الذي لا يستخدم الأسلوب التنظيري الجاف، ولا التقعيد المملّ، فقد عرض ذلك في أسلوب قصصيّ عبر نماذج لأنبياء سابقين له ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاضوا ميدان الدعوة، ولاقَوا فيه ما لاقوا.

1. 1. الإشكالية:

وهذا الموضوع هو ما يحاول البحث الوقوف عنده والبحث فيه، للإجابة عن عدة تساؤلات من قبيل: ما هي الموانع التي منعت الأقوامَ السابقين من الإيمان برسالة الأنبياء (عليهم السلام)؟ وهل هذه الموانع حقيقية وموضوعية، أم هي حجج واهية لا أساس لها؟، ما هو أصل الحجج؟، هل هو فساد في التفكير؟، أم هي موانع لها تأثيرها الفعلي في النفس والعقل؟

هل هذه الموانع والحجج أمر خاص بأولئك الأقوام؟، أم هي تجسيد لنوازع فطرية جُبل عليها الإنسان؟، وإذا كانت أمورا جبليّة فلماذا عاقب الله تعالى أولئك الأقوام وأحلّ بهم عذابه الأليم؟

1. 2. المنهج المقترح:

هذا جزء من التساؤلات التي سيحاول البحث الإجابة عنها، بالاستعانة بالمنهج الوصفي في عرض الموانع، والمنهج التحليلي لإبراز الدوافع الخفية وراءها، مستحضرا في ذلك أقوال المفسرين دون خوض في خلافات، ولا إغراقٍ في إسرائيليات لا فائدة لها في موضوع البحث.

1. 3. أهداف البحث: يهدف البحث إلى تحقيق جملة أهداف، من بينها:

أ. إبراز أهم الموانع التي تقف بين الناس وبين قبول الحق.

ب. إظهار جهود الأنبياء السابقين في تبليغ رسالة التوحيد.

ج. الوقوف عند طريقة الأنبياء في التعامل مع هذه الموانع، ومنهجهم الحكيم في محاورتهم لأقوامهم ومناقشتهم في ذلك.

2. نبذة عن سورة الشعراء

في سورة الشعراء يعرض لنا القرآن الكريم قصصا لعدد من الأنبياء الذين دعوا أقوامهم إلى التوحيد، وما كان من جواب أقوامهم إياهم، وما تذرّعوا به من موانع حالت بينهم وبين قبول الحق الخالص والدين الحنيف.

ننطلق مع هذه السورة من افتراض مسبَق، مفاده أن رسالة الأنبياء جميعا كانت واحدة، وغايتهم مجتمِعة على دعوة الناس إلى التوحيد، ونبذ ما يناقضه من ضلالات وشركيات، فليس المقصود من هذه السورة إبراز دعوة الأنبياء، بل المقصود إظهار ما واجه به الأقوام هذه الدعوة، وكيف اختلفت حججهم وموانعهم، وما هي الأسباب التي حادت بهم عن طريق الحق، وقادتهم إلى طريق الضلال، رغم ما أتى به الأنبياء من معجزات تؤيّد دعوتهم، وتثبت صدقهم فيما يقولون؟

كما أننا ننطلق مع افتراض آخر، هو أن ما تذرّع به الأقوام السابقون من أعذار ليس مجرد حجج واهية نتجت عن أفكار ساقطة ومعتقدات فاسدة، بل هي نمط تفكير متكرر، وأسلوب نظر مطّرد، يظهر لدى كل إنسان إزاء أي دعوة إلى الحق والخير أو مجرد التغيير، فالقصص القرآني لا يَعْرِض هذه الموانع تأريخا لها، بل يعرضها كنماذج لدوافع إنسانية تتكرر وتتجدد في كل ظرف، وفي كل زمان.

صورة للسورة:

سورة الشعراء سورة مكية في الغالب، عدا الآية 197، وهي قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء: 197]، وكذا الآيات الأخيرة التي تذكر الشعراء، وهي من قوله تعالى﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴾،...إلى آخر السورة[1]، وهذا أمر شائع في أغلب سور القرآن التي ينزل جزء منها بمكة، وبقيّتها في المدينة أو في مكان آخر.

وقد نزلت بعد سورة الواقعة في ترتيب النزول، وليس لها سبب نزول واضح، عدا ما استنبطه بعضُ المفسرين من أنه ما دامت السورة قد جاءت لتنفي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ تهمة الشعر، فلا بد

1. ابن عطية، المحرر الوجيز، ص 1394.

أن كفار قريش قد تحدّثوا بهذا الأمر قبل نزولها[1].

ولكن لا يعدو الأمر كونه افتراضا لا يدعمه دليل، ولا تعضّده رواية، سوى ما جاء في بعض الروايات أنها من أوائل السور التي جاءت في الدعوة الجهرية[2]، وهذا له دلالات تترك أثرها الواضح على مضمون السورة ومحورها العام.

في بدايات الدعوة، بل في السنوات الأولى للعهد المكي، وبعد انقضاء عهد الدعوة السرية، أمر اللهُ تعالى نبيَّه الكريم بالجهر بالدعوة والصدع بها، وهو أمر مخيف، لكنه ضروري وحتمي، فلن يكون صدى لدعوة تبقى حبيسة السر وطيَّ الكتمان.

وقد جهر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالدعوة وأعلن بها، واختلفت ردود القوم حولها، بين مؤمن ومُعْرِض ومشدوه، وبين مكابِر ومتّهِم ومستهزئ، وفي هذا الجوّ تنزل سورة الشعراء لتعرِض للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ نماذج من قصص الأنبياء السابقين، وكيف دعوا أقوامهم، وما واجهوه من معوّقات ومصاعب، وليس المقصود تسلية النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عمّا يلاقيه وحسب، بل في الأمر تبصير إلهي له أن ما يلقاه من قومه ليس شخصيا، ولا يتعلّق بقومه بشكل خاص، بل هو أمر عام واجهه الأنبياء السابقون، وسيواجهه المصلحون إلى يوم الدين، لأن هذه النوازع البشرية هي فطرة جُبل الناس عليها، لِيكون النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أكثر رحمة، وأكثر صبرا في معالجة هذه النوازع والتعامل معها.

3. مانع السلطة والحكم (فرعون):

أول الموانع التي تقف حائلا بين الإنسان وقبول الحق هو إحساسه بالسلطة، وتمتّعه بالملك، وقدرته على القهر، وظنه الواهم أن بيده مقاليد الأمور، فلن يحتاج إلى مَن يقول له: إنك مخطئ، وأن الملك الذي تدّعيه ليس لك، بل لله تعالى الذي خلقك وابتلاك بالحكم.

فرعون في هذا المقام هو تجسيدٌ للسلطة الحاكمة التي تحارب التغيير، لأنها ترى أن من مصلحتها بقاء الأمور على ما هي عليه، وأن أيّ إصلاح أو تغيير قد يودي بمكانتها، ويُفْقدها سلطتها، فمن الطبيعي أن يرفض دعوة موسى ـ عليه السلام ـ، وأن يحاربه لأجلها، كما هو الشأن مع كل الأقوام وكل الدعوات، يقول الله تعالى: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأعراف: 60]، وقال في موضع آخر﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [هود: 25-27].

فالملأ ـ أي السلطة الحاكمة ـ هم أول الرافضين لدعوات الإصلاح والتغيير.

[1]. راجع: في ظلال القرآن، ص 2584.
[2]. انظر: سيرة ابن هشام، ج 1/ ص 295.

ولْنتأمل الحوار الذي دار بين موسى ـ عليه السلام ـ وفرعون لنقفَ على جانب من تفكير الطغاة والمستبدين، ونموذج لمنطقهم في التعامل مع دعوات التغيير والإصلاح:

﴿ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، يقول ابن عطية "وكان موسى مبعوثا إلى فرعون في أمرين: أحدهما أن يرسل بني إسرائيل ويزيل عنهم ذل العبودية والغلبة، والثاني أن يؤمن ويهتدي وأمر بمكافحته ومقاومته في الأول، ولم يؤمر بذلك في الثاني"[1].

فأول ما نلحظه أن موسى ـ عليه السلام ـ لم يزد عن أن أعلن أنه رسول رب العالمين، ثم طلب إرسال بني إسرائيل معه ليخرجَ بهم من مصر، لكن فرعون استرسل في الرد على دعوى موسى، وزعم أنه ـ أي فرعون ـ هو الإله الجدير بالعبادة، وهذا الاضطراب ينبئ عن ضعف شخصية الطغاة مهما كان مبلغ قوتهم وبطشهم.

وبدل أن يناقش الأمرَ بالدليل والبرهان، فإنه نزع إلى شخصنة الموضوع، ومحاولة إحراج موسى بتذكيره بماضيه في قصر فرعون، فقال: ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ ﴾، وقد استخدم قصدا لفظ "**وليدا**" التي تحمل في طيّاتها معنى أنك كنت وليدا فعطفنا عليك وربّيناك، كما أنها توحي بالتحقير وقلة العقل، فأنت يا موسى كنت وليدا عندنا، والآن تدّعي النبوة، وتُملي طلباتك علينا. يقول القرطبي مفسرا "ف﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا ﴾ [الشعراء: 18] على جهة المن والاحتقار، أي ربّيناك صغيرا، ولم نقتلك في جملة من قتلنا، ولبثت فينا من عمرك سنين، فمتى كان هذا الذي تدّعيه"[2].

ثم ذكّر موسى بفعلته حين قتل القبطيَّ خطأً، وفرّ إلى مدين، ليزيد من إرباكه.

لكن موسى ـ عليه السلام ـ أجاب عن هذه المحاولات بذكاء وحنكة، حين أجاب أنه هرب لمّا قتل القبطيَّ لأنه خاف من ظلم الفراعنة، وأنه لا ثقة له في عدالتهم، فهم لن يصدّقوا أنه قتل القبطي خطأً بدفعه دون نية قتله، بل كان سيُعدَم فقط لأنه إسرائيلي قتل مصريا، فقال: ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ ﴾ [الشعراء: 21].

وأمّا عن امتنان فرعون بتربية موسى في قصره، فكان ردّه ـ عليه السلام ـ مفحِما لمّا قال: وتلك نعمة تمنّها عليّ أن عبّدت بني إسرائيل، "﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الشعراء: 22]: أي وتلك التربية نعمة تمنها علي ظاهراً"[3]. فلولا استعبادك بني إسرائيل وقتلك الذكورَ منهم، لما اضطُّرت أمي إلى إلقائي في النيل الذي حملني إلى قصرك.

---

[1]. ابن عطية، المحرر الوجيز، ص 1396.
[2]. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج 16 / ص 16.
[3]. البيضاوي، أنوار التنزيل، ج 4/ ص 135.

ولما أُسقط في يد فرعون، حاوَل تغيير الموضوع، فموسى قال له: ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾، قال فرعون: ﴿ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، فبيّن له موسى حقيقة هذا الإله الحق من خلال ثلاثة أمور: أنه رب السماوات والأرض، ربكم ورب آبائكم الأولين، رب المشرق والمغرب وما بينهما.

فإذا كان فرعون يزعم أن بيده ملك مصر وما يجري فيها من أنهار. فلو سلّمنا له ذلك. فهو لن يعدوَ ذلك الحيز الضيق والمكان الضئيل، فكيف يكون إلها وهو لا يملك المشرق والمغرب والسماوات والأرض؟، "إذ كان فرعون ومن قبله من ملوك مصر لم يجاوز ملكهم عريش مصر، وتبين لفرعون ومن حوله من قومه أن الذي يدعوهم موسى إلى عبادته، هو الملك الذي يملك الملوك"[1].

ويظهر ذكاء سيدنا موسى ـ عليه السلام ـ أنه حاصر فرعون بحقيقة الإله الذي يملك على الإنسان كلَّ جهاته ومناحيه، من المشرق إلى المغرب، ومن السماء إلى الأرض، بل وحتى تاريخه وماضيه، وهذه أمور مشاهَدة ويومية، لا يَسَع فرعونَ ولا غيره إنكارها أو التشكيك فيها.

وبعد أن فشلت محاولات فرعون ومحاوراته البائسة، خصوصا أن هذه المناقشة كانت على مرأى ومَسْمَع من حاشيته وسدنته، وهم يرونه عاجزا عن الرد، ومحصورا عن الإجابة، لجأ فرعون ـ كما هو شأن الطغاة ـ إلى التهديد بالحبس، فقال: ﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾ [الشعراء: 29]، وليس هناك تصريح بالعجز أكثر من ذلك.

ثم لعب على وتر القومية، والنعرات العصبية حين قال: ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ [الشعراء: 35]، تلميحا إلى أصل موسى الإسرائيلي، وأنه يريد إخراج المصريين من أرضهم، رغم أن موسى قد طلب صراحة من فرعون أن يسمح له بإخراج الإسرائيليين من مصر، ولم يَعرِض للمصريين أبدا.

ثم تسترسل الآيات لبيان استعانة فرعون بالسحرة، ورشوته إياهم بالأجر والمناصب، وكيف انقلبوا عليه من الكفر إلى الإيمان بموسى ـ عليه السلام ـ، ثم طارَد بني إسرائيل لمّا خرجوا من مصر، وغرق في اليم هو وجنوده أجمعون.

فهذا نموذج صادق عن أكبر الموانع عن قبول الحق، ألا وهو السلطة والحكم، وأن مَن ابتُلي به يكون أول المحاربين للإصلاح والتغيير، وما عرضَتْه الآيات من تصرّفاتٍ قام بها فرعون هي في حقيقتها منهج مطّرد، يمارسه المستبدون مع المصلحين، يبدأون معهم بحملات التشويه والاتّهام بالتآمر لتخريب البلاد والأيادي الخارجية المندسّة، ثم يستأجرون أقلاما وإعلاميين لمناظرتهم ومحاورتهم في ظروف مشبوهة للرد عليهم، ولمّا يبوء كل ذلك بالفشل يلجؤون إلى العنف والقهر والتهديد بالسجن، أو القتل والنفي.

---

1. الطبري، جامع البيان، ج 17/ ص 564.

4. سلطان العادة والعرف (قوم إبراهيم):

الإنسان ابن بيئته ومحيطه، يتأثّر بالواقع المحيط به بسهولة وسرعة، لذلك قيل: إن البيئة هي اليد الخفية التي تُشَكّل شخصية الإنسان، والواقع مليء بقصص أناس تغيّرت نظرتهم لكثير من الأمور لمجرد تغييرهم البيئة التي كانوا يعيشون فيها.

والأمر إلى هنا ليس مشْكِلا، بل هو طبيعي، لكنه يصبح مشكلا حين تتحول العادات إلى سجن يسجن الإنسانَ، ويمنعه من النظر أبعد منه، وتصبح العادات والأعراف هي المعيار الذي نقيس به صواب فكرة أو خطأها، فلا نقبل فكرة إلا إذا كانت مما اعتاد الناس وألفوا، وتتحول أقوال السابقين وأفكارهم من دافع للبحث والنظر كما فعلوا هم أنفسهم، إلى قيود تُكبِّل العقلَ أن يتفكّر، وتمنعه أن ينظر ويتبصّر، لذلك يصاب العقل بالاستلاب والشعور بالنقص والدونية أمام تراث السابقين، ومن ثَمّ يتسلل إليه الجمود والركود، ويألفهما لدرجة أنه يرفض أي دعوة تناقض ما قاله السابقون فقط لأنهم لم يقولوا بها أو يعرفوها.

هذا المانع الكبير والمؤثّر هو ما واجهه إبراهيم ـ عليه السلام ـ حين دعا قومه إلى التوحيد، ونبذ الشرك، والكفر بالأصنام التي ليس لها حقيقة إلا أنها حجارة، لا تنفع ولا تضرّ، يقول تعالى حاكيا: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الشعراء: 69-74].

الغريب حقا أنهم صرّحوا أنهم يعبدون أصناما، لا آلهة، فهم يعرفون أنها حجارة، وأنها لا تسمع ولا تنفع ولا تضرّ، ومع ذلك، فما دام الآباء والأجداد قد عبدوها فلا بد أن تكون صوابا، ولا بد أن تكون هي الطريق الوحيد الصحيح، "فقال لهم فإذا كان من تعبدونه لا يسمع دعاءكم حتى يعرف مقصودكم، ولو عرف ذلك لما صحّ أن يبذل النفعَ أو يدفع الضرر، فكيف تستجيزون أن تعبدوا ما هذا وصفه؟، فعند هذه الحجة القاهرة لم يجد أبوه وقومه ما يدفعون به هذه الحجة فعدلوا إلى أن قالوا: ﴿ قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الشعراء: 74] "[1].

ورغم أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ لم يدخل معهم في نقاش عقدي أو فلسفي، بل سألهم أسئلة منطقية وبديهية جدا، فكيف تعبد إلها لا يسمعك؟، ولا ينفعك ولا يضرّك؟، لكن العادة محَكَّمة، والتقاليد متسلّطة، لذلك واجههم إبراهيم بالحقيقة، فما دامت آلهتكم لا تنفع ولا تضر، بل ولا حتى تسمع، فأنا أعبد إلها واحدا: ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ﴿٨١﴾ ﴾ [الشعراء: 78-81].

---

1. فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، ج 24/ ص 142.

فإله إبراهيم بيده الخلق والهداية، والإطعام والسقيا، والمرض والصحة، والموت والحياة، وهذه أمور يتعامل معها الناس كل يوم من حياتهم، فضلا عن كونها أمورا مهمة وحساسة تؤثر في حياتهم، فهل أصنامهم وحجارتهم قادرة أن تفعل مثل ما يفعل إله إبراهيم؟، أم هو سلطان العادات البائسة والتقاليد البالية التي بنت أصناما على عقولهم، ومنعتهم حتى من التفكير في بديهيات الأمور؟

الجميل في الأمر أن موسى ـ عليه السلام ـ لما ناقش دعوة فرعون قدّم له دلائل وبراهين، وهذا مناسب لمواجهة دعاوى فرعون الباطلة، لذلك جاء الحوار تقريريا، فهي دعوى في مقابل دعوى، أما في قصة إبراهيم فإنه حاورهم بطرح أسئلة عليهم، واستفزازهم للإجابة عنها، لأنه ـ عليه السلام ـ يعرف أن أكبر مشكلة في العقل المرتهن في الماضي والمكبَّل بالعادات ليس في العادات نفسها بالضرورة، بل في تعطيل العقل، وعدم السماح له بالنظر والتبصر، بدليل أنه ينكر مسلَّمات الأمور وبديهياتها، ويعبد أصناما يعرف أنها حجارة يعرف أنها لن تنفعه ولن تضره، فقط لأنها ميراث الآباء والأجداد.

أمر آخر لافت للنظر، هو أن مانع العرف والعادة وسلطة الآباء كان حاضرا مع كثير من الأنبياء، حتى مع محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ، كما صرّح القرآن الكريم بذلك حاكيا عن كفار قريش قولهم: ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴾ [ص: 7]، ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: 22].

لكن القرآن كان حريصا على إبراز هذا المانع أكثر مع شخصية إبراهيم ـ عليه السلام ـ، وهذا الجدل نجده حاضرا في مختلف السياقات التي جاءت قصة إبراهيم ـ عليه السلام ـ دون غيره من الأنبياء، فلماذا هذا التركيز القرآني إذا؟

والجواب أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ لم يواجه هذه السلطة الأبوية كما اعتاد على مواجهتها الأنبياء السابقون، بل واجهه في أقرب صورة وأصعبها، لأن والده كان جزءا من السلطة الدينية التي تكرّس عبادة الأصنام، فما حدث بين إبراهيم وقومه لم يكن إلا صورة مكبَّرة تجسّد ما حدث بين إبراهيم ووالده، فكما أن والده يصنع أصناما ليعبدها الناس، فإن الآباء السابقين والأجداد الأقدمين صنعوا أوهاما تعلّق بها قومه واعتنقوها.

لكن الأمر الدقيق جدا هو أن إبراهيم لم يحمله اقتناعه بخطأ قومه على إعلان الحرب عليهم، وإيمانه بضلال أبيه لم يَدْعُه إلى التمرّد عليه كما يفعل المراهقون المتحمسون بعاطفة دينية، كما أنه لم يسمح لحبه لأبيه ولانتمائه لقومه أن يجعله يقبل ما هم عليه من ضلال وشرك، ولم يضع نفسه في اختيار؛ إما الإيمان، وإما القبيلة أو العشيرة، بل كان حريصا على الأمريْن معا، ولم يختر الإيمان إلا لما اضطّره أبوه إلى ذلك لما قال: ﴿ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ [مريم: 46]، ولما قام قومه بذلك الفعل البائس العاجز حين ألقَوه في النار.

"لقد وضع إبراهيم ـ عليه السلام ـ الآبائيةَ في الميزان، وأنه لا يجوز الإنسان أن يخون الحق والضمير في سبيل الآباء، إنه موطن الصراع، الحق والضمير أم الآباء والمجتمع؟، إن الحق والضمير ليس ضد الآباء والمجتمع، وإنما ضد الباطل والخطأ، وهذا التمييز ضروري حتى لا نخرج عن العدل"[1].

فإبراهيم ـ عليه السلام ـ ليس متمردا عن العادات، ولا مناهضا للتقاليد، فهي أمور طبيعية، لا يملك الإنسان منها فكاكا، لكنه ضد أن تتحول العادات إلى سجن يحجب عن العقل نور الهداية، ويصادر حقه في النظر والتفكر.

5. سلطان المكانة (قوم نوح):

خلق الله تعالى الخلقَ متفاوتين، ورفع بعضهم فوق بعض درجات، وقضت حكمته أن يكون هذا التفاوت جزءا من اختبارهم في الحياة، وامتحانا لمقدار صبرهم أو شكرهم، فمنهم العالم والجاهل، الغني والفقير، القوي والضعيف، السادة والعبيد، الحكام والسوقة.

وما دام الأمر طبيعيا فلا مجال للاعتراض عليه، لكن الاعتراض هو حين تتحول المكانة الاجتماعية إلى مانع من قبول الحق، وصادّا عن الاستجابة له، وهذا ما حصل مع قوم نوح ـ عليه السلام ـ الذي دعاهم إلى التوحيد كشأن الأنبياء، لكنهم لم يناقشوه في دعوته، ولم يعترضوا على فحواها ومضمونها، بل قالوا له: ﴿ ۞ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ١١١ ﴾ [الشعراء: 111]، "يقولون: لا نؤمن لك ولا نتبعك ونتساوى بهؤلاء الأراذل الذين اتبعوك وصدقوك وهم أراذلنا"[2].

فكيف تريد منا أن نقبل دعوة تساوي بيننا وبين الأرذلين؟، وهل تتوقع أن نتّبع دينا هو دين للفقراء، وإلها هو للناس جميعا؟، كلا، فنحن أصحاب المكانة العالية، والمنصب الرفيع، لن نقبل المساواة مع الدهماء، وأن يجمعنا دين واحد،

وقد قالوا له في سياق آخر: ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ ٢٧ ﴾ [هود: 27]، فأنتم لا تريدون الحق، بل تريدون المساواة معنا في المكانة والامتيازات والفوائد.

فواجههم نوح بإعلان صارم، قائلا: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٤ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ١١٥ ﴾ [الشعراء: 114-115]، إن أنا إلا نذير مبين، فالعلاقة ليست علاقة شرف ونسب ووجاهة، بل هي علاقة إيمان يَسَع الناس جميعا.

فهدّدوه قائلين: ﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ ١١٦ ﴾ [الشعراء: 116]، فعقابك أن تخرج من الطبقة الحاكمة الراقية، ونجعلك من المرجومين المذلولين.

---

[1]. جودت سعيد، اقرأ وربك الأكرم، ص 191.

[2]. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج 6/ ص 136.

وقد أجابهم في سياق آخر: ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًاۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾[هود: 31]، وختم السياق بقوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [الشعراء: 119-120]، والمفارقة العجيبة هي أن الذين وُصفوا أنهم أرذلون كانوا هم الأعلون، لأن الماء رفع الفلكَ وهم في داخله، أما أولئك المتكبّرون فقد غمرهم الماء، فكانوا هم الأسفلين.

المكانة الاجتماعية أحد أكبر الموانع من قبول الحق والإصغاء إليه، وكيف؟، وقد استغرقت دعوة نوح ـ عليه السلام ـ ألف سنة إلا خمسين عاما، وفي الأخير لم يؤمن له إلا قليل منهم.

6. القوة المُطْغية (قوم عاد):

يأتي على الإنسان حين من الدهر يشعر فيه بالقوة، ويحسّ بالغلبة، وأن الأمور سهلة وممكنة بالنسبة إليه، وأنه قادر على تحقيق كل ما يفكر فيه، والأمر ذاته ينسحب على المجتمعات التي قد تمرّ بها أوقات ازدهار وتفوق ورقيّ وحضارة.

في حالة القوة ـ سواء للأفراد أو للمجتمعات ـ يكون من الصعب قبول فكرة التغيير، أو الحاجة للإصلاح، فالمؤشرات الاقتصادية عالية، والقوة العسكرية طاغية، ومعدلات النمو والدخل القومي وحال التعليم والصحة كلها أمور تُعَدّ شواهد على القوة التي لا تحتاج إلى تغيير أو إصلاح، ولسان حال تلك المجتمعات يقول: ما حاجتي إلى التغيير وأنا أملك من القوة طرفيها، ومن المجد أعلاه وأسماه؟، وكما قال فرعون: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ﴾ [الزخرف: 51].

مانع القوة المطغية التي تمنع صاحبها من قبول الحق هو ما جسّده قوم عاد لمّا جاءهم هود ـ عليه السلام ـ بدعوة الحق، فهم كانوا على درجة عالية من القوة والمنعة وحسن الحال، وهو ما عبّر عنه الله تعالى حاكيا على لسان هود: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الشعراء: 128-130].

فهم بلغوا من القوة شأوا جعلهم يعبثون، ويبتغون الخلود، ويبطشون جبارين، ومن كانت هذه حاله فمن الصعب تخيّل قبوله لدعوة أو فكرة تدعوه إلى التغيير، لذلك أجابوه قائلين: ﴿قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الشعراء: 136]، أي "وَعْظُكَ وَعَدَمُهُ سَواءٌ عِنْدَنا لا نُبَالِي بِشَيْءٍ مِنْهُ، وَلا نَلْتَفِتُ إِلَى مَا تَقُولُهُ"[1]، فكلامك لن يؤثر في قوم أقوياء كحالنا.

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الشعراء: 137-138]، فنحن أقوى وأمنع من أن ينالنا العذاب، أو يطالنا السوء.

---

1. الشوكاني، فتح القدير، ج4/ ص 147.

لكن قد يَرد على البال سؤال في هذا المقام: هل امتلاك قوم للقوة وتمتّعهم بها أمر مشكْل لدرجة أن يرسل الله تعالى نبيا من أنبيائه إليهم؟، هل من مشكلة مع القوة والسعي إليها؟

والحقيقة أنه لا إشكال إطلاقا مع القوة والحرص عليها، والسعي إلى الأخذ بأسبابها، لكن المشكل الكبير جدا هو في الطريقة التي استخدم بها قوم عاد قوّتهم وبأسهم، كما وصفتهم السورة: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [الشعراء: 128]، يقول ابن كثير "أي وإنما تفعلون ذلك عبثا لا للاحتياج إليه، بل لمجرد اللعب واللهو وإظهار القوة، ولذلك أنكر عليهم نبيهم ـ عليه السلام ـ ذلك، لأنه تضييع للزمان وإتعاب للأبدان في غير فائدة، واشتغال بما لا يجدي في الدنيا ولا في الآخرة"[1].

فهم يبنون، لا لغاية البناء، بل للتفاخر والصلف والاستعلاء بالقوة وإبراز التفوق على الآخرين، فبناؤهم عبث، أي لا غاية حقيقية له، بل مجرد آية، أي دليل على التفوق والاستعلاء الأجوف على الشعوب الأخرى.

﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [الشعراء: 129]: فالمصانع، وهي المباني والقصور[2]، يراد بها الخلود في الدنيا، ونيل المجد وإبقاء الذكر فيها، فالآخرة ليست ضمن حسابكم ولا غايتكم، بل نظركم مقصور فقط على الدنيا والخلود فيها بالمباني والعمران الذي سرعان ما ستتركونه وراءكم لتسكنوا قبورا باردة في بطن الأرض.

﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [الشعراء: 130]: "إذا بَطَشْتُمْ أي أردتم البطش بسوط أو سيف بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ مسلطين غاشمين بلا رأفة ولا قصد تأديب ولا نظر في العاقبة"[3]، فقوتكم العسكرية ليست لحمايتكم، أو لحماية الحق والدفاع عن المستضعفين والحريات وحقوق الإنسان، بل هي لقهر الناس واستعبادهم، والبطش بهم بكل جبروت وطغيان.

فقوم عاد قد اتّصفوا بالعبث الذي هو فقدان الهدف والغاية، وبالرغبة في الخلود، وهو حال مَن قصر نظره على الدنيا فقط، والتجبّر لإذلال الناس والاستكبار عليهم، وهذه الأمراض النفسية قد استغلت قوة قوم عاد لدرجة أن فسدت طباعهم ففسدت أخلاقهم، بل وطبعت على قلوبهم فلم يقبلوا مقالة الحق لما جاءت على لسان هود ـ عليه السلام ـ.

قوم عادوا نموذج لقوم امتلكوا القوة، لكن دون مرشِد، ودون دليل، ولم يكن لهم وازع من الدين يأمرهم باستغلال هذه القوة في الخير، بل سمحوا لنوازع الشر أن تسيطر عليهم، واستغلوا قوتهم في العبث والخلود والبطش، وهذا حال الإنسان حين يمتلك القوة وهو خِلو من الإيمان، ومجرّد من الوازع

[1]. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج 6 / ص 137.
[2]. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج 6 / ص 138.
[3] الآلوسي، روح المعاني، ج 19/ ص 110.

الذي يدفعه إلى الخير، ويَزَعه عن الشر والإفساد في الأرض، ولعل العصر الحاضر أصدق شاهد على أقوام لما استشعروا في أنفسهم قوة وتمكّنا فإنهم عاشوا في الأرض مفسدين.

7. الترف وتقديس المتعة (قوم ثمود)

يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٌ ﴾ [غافر: 39]، ويقول أيضا: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٌ وَلَهۡوٌ وَزِينَةٌ ﴾ [الحديد: 20].

من الطبيعي أن يحب الإنسان المتعةَ ويسعى إليها، ويألف تعاطيها، ولولا وجود المتعة في الدنيا لما كان لها في كثير من الجوانب معنى ولا طعم، ولو لم تكن المتعة أمرا مهما ومؤثّرا في الإنسان لما جعلها الله تعالى جائزة ينالها المؤمن حين يدخل الجنة في الآخرة.

قوم ثمود مثال على أناس نالوا أسباب المتعة، وأساليب الرغد، وطُرَق الرفاهية، وأسرفوا فيها إلى درجة جعلتْهم يرفضون قبول دعوة التوحيد التي جاءهم بها صالح ـ عليه السلام ـ. يقول تعالى واصفا خطاب نبيهم إليهم: ﴿ أَتُتۡرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٖ وَنَخۡلٖ طَلۡعُهَا هَضِيمٞ ﴿١٤٨﴾ وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ [الشعراء: 146-149]، "تظنون أنكم متروكون لهذا الذي أنتم فيه من دعة ورخاء ومتعة ونعمة.. وسائر ما يتضمنه هذا الإجمال من تفخيم وتضخيم.. أتتركون في هذا كله آمنين لا يروعكم فوت، ولا يزعجكم سلب، ولا يفزعكم تغيير؟

أتتركون في هذا كله من جنات وعيون، وزروع متنوعات، ونخل جيدة الطلع، سهلة الهضم حتى كأن جناها مهضوم لا يحتاج إلى جهد في البطون! وتتركون في البيوت تنحتونها في الصخور بمهارة وبراعة، وفي أناقة وفراهة؟"[1].

وقد قال لهم في سياق آخر ﴿ وَفِي ثَمُودَ إِذۡ قِيلَ لَهُمۡ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الذاريات: 43].

فهم تمتّعوا بالأمن والسلام، وكانت لهم جنات ومزارع، بل ونخل طلعها هضيم، أي سهل الهضم دون مشاكل، وكانوا ينحتون بيوتا للرفاهية والمتعة[2]، فهل أناس هذه حالهم سيقبلون دعوة تدعوهم إلى تغيير أوضاعهم وإصلاحها؟، فما دام القوم غارقين في المتعة فما حاجتهم إلى تغيير؟، وما الداعي إلى الإصلاح؟

الجواب في قول صالح ـ عليه السلام ـ لهم: ﴿ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [الشعراء: 151-152]، لأن المشكلة الكبيرة في المتعة أنها لا تكفّ تطلب مزيدا، ولا تقف عند حدّ الاعتدال والقصد، بل تجعل صاحبها يطلب الزيادة والمتعة واللهو والتفنن في أساليبها وأسبابها، فيقع

[1]. سيد قطب، في ظلال القرآن، ص2611.
[2]. وليس لإظهار القوة كما كان يفعل قوم عاد.

صاحبها في الإسراف الذي هو مجاوزة الحد، ويؤدي به ذلك إلى الإفساد والاختلال، وتصبح المتعة التي هي ترويح عن النفس إلى إدمان يحبس صاحبه، ويملك عليه وجدانه، بل وشؤون حياته، وكل مَن وقع في فخ الإدمان قد بدأ الأمر معه بمتعة أو نشوة لحظية، لكنه تجاوز الحد فيها إلى أن تحوّل إلى سجين لها، مستعدا لفعل أي شيء لمجرد نيل نشوة أعلى كل مرة، فكيف يقبل مَن كانت هذه حاله دعوة لإصلاح أو تغيير؟، كلا، لن يقبل ذلك، بل لن يكون أصلا في وضع يسمح له بالسماع أو التفكير.

والخطير في أمر الترف وطلب المتعة أن قوم ثمود لم يتعاطوا المحرمات والمنكرات، بل تمتعوا بالأمن والجنات والزروع والعمران والبنيان، وهذه أمور مباحة لا ينكرها عاقل، ولا يُتصوَّر أن تكون سببا في هلاك قوم لأنهم رفضوا دعوة التوحيد، وهذا دليل أن المشكلة ليست في المتعة في ذاتها، بل في جعلها غاية وهدفا يسعى الإنسان إليه، ويكون الترف هو منتهى طلب الإنسان، وأن يصبح اللهو والترفيه ـ كما نراه اليوم ـ هو الغاية التي يبدع لأجلها الإنسان ويبتكر ويخترع، وإذا كان ما أصاب قومَ ثمود كان بفعل إغراقهم في متع مباحة ولهو جائز، فما هو مصير أقوام يكون فنّهم واختراعهم وتقنياتهم في الإغراق في متع مرذولة وشهوات بهيمية؟، فالإغراق في المتعة ولو كانت حلالا يجعل صاحبها أبعدَ عن قبول التوحيد، وأنفرَ الناس عنه، فكيف إذا كانت حراما؟.

ولمّا واجههم بالحقيقة، وكشف لهم طبيعة الموقف، فإنهم لم يواجهوه بالحجة ولا بالمنطق، بل تهرّبوا من ذلك تهرّب العاجز عن المواجهة، وطالبوه بآية ومعجزة، وكان لهم ما أرادوا، رغم أن الآية ليست نصا أن صالحا ـ عليه السلام ـ قد أتاهم بناقة من هضبة صخر، بل كل ما تفيده أنه عيّن لهم ناقة لتشاركهم في شرب الماء، فيكون لهم يوم، ويكون لهم يوم آخر وحسب.

لكنهم لم يقبلوا هذا الكلام، بل قاموا بعقرها وسفك دمها.

وقد جاء في هذا السياق أنهم قد ندموا على فعلهم هذا، وورد في سياق آخر أنهم تحدّوه بعد عقرها أن يُحِلّ عليهم العذاب الذي توعّدهم به قائلين: ﴿ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٧٧ ﴾ [الأعراف: 77] .

وليس بين السياقين تعارُض، فهم قد عقروا الناقة وأعلنوا تحدّيهم له، ثم ندموا على فعلهم بعد ذلك، وهذا تلميح قرآني بليغ لطريقة تفكير العقل المشبع بالمتعة، والحريص على الشهوة، فهو عقل مضطرب، لا مكان فيه للحكمة ولا البصيرة، وهذا هو عاقبة الإسراف في المتعة المؤدّي إلى الفساد في العقل والنظر، كما حذّرهم نبيهم لما قال لهم: ﴿ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ١٥١ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ١٥٢ ﴾ [الشعراء: 151-152].

عصرنا الحاضر هو عصر عبادة المتعة والتفنن فيها، واستغلال كل المقدرات في سبيل إشباعها، ودون وجود وازع دين، ولا نازع خُلُق يسقط الإنسان في فخ الإسراف في الشهوة لتصلَ به حدَّ الإفساد في

الأرض، ورفض قبول النصيحة والتفكير في العواقب، فهل ينتظر الإنسان المعاصر ناقة كناقة صالح ليعقرها فيحلَّ به عذاب الله تعالى؟

8. انقلاب الفطرة (قوم لوط):

كل ما مرّ معنا سابقا كان نماذج من انحرافات في التفكير، نجم عنها انحراف في السلوك، أدّت إلى الإعراض عن قبول الحق رغم وضوحه وبداهته، والتمسّك بالباطل، ولو كان مجرد وهم لا قِوام له.

لكن مع قوم لوط كان الأمر مختلفا، لأن ما قاموا به وجسّدوه لم يكن انحرافا في السلوك، وخطأً في التفكير، بل كان تعبيرا عن انقلاب تام في الفطرة، وعكسٍ كليّ للقانون الإلهي الذي خلق الله تعالى عليه الحياة، وفطر عليها الخلق، وذلك حين تركوا ما خلق لهم ربهم من أزواجهم، وما فُطروا عليه من ميل الذكر إلى الأنثى، وميلها إليه، ولجأوا إلى إتيان الذكور شهوة وفجورا وانحرافا لم يسبقهم إليه أحد من العالمين.

دعاهم لوط ـ عليه السلام ـ إلى التوحيد، ونهاهم عن فعلهم القبيح قائلا: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الشعراء: 165-166]. أي مسرفون، متجاوزون للحد والقصد، "متعدُّون متجاوزونَ الحدَّ في جميعِ المعاصي وهذا من جُملتِها، وقيل متجاوزونَ عن حدِّ الشَّهوةِ حيث زادُوا على سائرِ النَّاسِ بل الحيواناتِ"[1].

فلم يكن لهم جواب إلا أن قالوا: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾﴾ [الشعراء: 167]، فهم قد انقلبت موازينهم لدرجة أن أصبح مَن يدعوهم إلى التوحيد والعفة والخلق السليم هو المستحقّ للإخراج والإبعاد، وقد قالوا في سياق آخر: ﴿ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النمل: 56]، فالأصل أن يكون النجس والشذوذ هو سبب الإبعاد، لكن القوم كانوا أبعد عن الحس والمنطق السليم، فأصبح لديهم التطهر موجبا للإبعاد.

فلم يملك لوط ـ عليه السلام ـ إلا أن دعا ربّه قائلا: ﴿رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [الشعراء: 169]، وهذه صيغة قد جاءت في هذه السورة في قصة نوح مع قومه لما دعا قائلا: ﴿وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [الشعراء: 118]، وهو ما لا نجده في السياقات المختلفة التي جاءت في السورة، وهذا له دلالة خطيرة جدا، فحين يطلب نبي أن ينجيه الله تعالى من فعل قومه، معناه أنهم قد بلغوا حدا لم يعودوا فيه قابلين للإصلاح أو الإرشاد، وأن الحل الوحيد المتبقي لا أن يطلب النبي الهداية لقومه، بل أن ينجوَ هو ومَن معه من المؤمنين.

[1]. أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج6/ ص 260.

وليس هذا استسلاما من هذيْن النبيين العظيمين، كلا، بل هو إيقان منهما أن قومهما لم يعودوا يستحقون عناء الموعظة، ولا مشقة النصيحة، وهل تجدي نصيحة نوح ـ عليه السلام ـ لقومه وقد استغرق معهم ألف سنة إلا خمسين عاما لم يؤمن له فيها إلا قليل؟

وهل أناس قد انتكست فِطَرهم وانقلبت موازينهم يستحقون مزيدا من الجهد والكفاح من نبي الله لوط ـ عليه السلام ـ؟.

كلا، لأن هذه الدعوة منهما ـ عليهما السلام ـ دليل أن الأمر لا يستحق المحاولة، وعناء بذل الجهد لدرجة أن زوجتيهما قد خانتاهما حتى جعلهما الله مَثَلا للذين كفروا لما قال سبحانه: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ١٠ ﴾ [التحريم: 10].

والملاحَظ كذلك في قصتيْ نوح ولوط ـ عليهما السلام ـ أن الله تعالى أرسل ماءً ليغرق به قوم نوح، وأرسل مطرا بعد أن أنزل عقابه على قوم لوط، وفي هذا إشارة أن كلا القومين لا يستحقان العقاب الإلهي فقط، بل يستحقون تطهير الأرض منهم ومن آثارهم ليكونوا عبرة لمن يأتي بعدهم من العالمين.

صحيح أن ما قام به قوم لوط فعل شاذ في نفسه بكل المقاييس الأخلاقية والدينية، لكنه في حقيقته النهايةُ الأكيدة والمصيرُ المحتوم لما كان يقوم به قوم ثمود، فالإغراق في المتعة وعبادة الشهوات لن تكف عن طلب المزيد والمزيد كما أشرنا، وحين تنفد الطرق العادية والمشروعة[1]، فإن النفس ستطلب المزيد من اللذة من طُرُق أخرى، ولو كانت غير مشروعة، حتى ولو كانت ضد الفطرة الإنسانية السوية، لأن العقل المُغرَق في الشهوة لن يبالي إن ضحى بأخلاقه وفطرته وحسّه السليم.

إلى هذا الحد يؤدّي انقلاب الفطرة إلى الإعراض عن الحق وعدم قبوله، أو حتى سماعه أو مجاورة الداعين إليه.

9. المنفعة المادية (أصحاب الأيكة):

آخر الموانع عن قبول الحق وأشدها فتكا، وليس من المبالغة القول إن عصرنا الحاضر قد جسّده بأبشع صورة، ألا وهو مانع الحرص على المنفعة، والتكالب على المادة، حتى لو أدّى ذلك إلى الاعتداء على الناس، وسلبهم حقوقهم، كما كان يفعل أصحاب الأيكة الذين أرسل الله تعالى إليهم شعيبا ـ عليه السلام ـ داعيا إياهم إلى التوحيد، دين الحق، ومحذّرا لهم مما كانوا يفعلونه، قال ـ عليه السلام ـ: ﴿ ۞ أَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ١٨١ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ١٨٢ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ١٨٣ ﴾ [الشعراء: 181-183]، "كان شأنهم- كما ذكر في سورتي الأعراف وهود- أن يطففوا في الميزان والمكيال، وأن

[1]. (مثل التفنن في الزرع والنخل والبنيان كما كان الحال عند قوم ثمود).

يأخذوا بالقسر والغصب زائدا عن حقهم، ويعطوا أقل من حق الناس، ويشتروا بثمن بخس ويبيعوا بثمن مرتفع. ويبدو أنهم كانوا في ممر قوافل التجارة، فكانوا يتحكمون فيها. وقد أمرهم رسولهم بالعدل والقسط في هذا كله، لأن العقيدة الصحيحة يتبعها حسن المعاملة. ولا تستطيع أن تغضي عن الحق والعدل في معاملات الناس"[1].

فهم قوم لا يوفون الكيل، بل يتنقصون منه، ويُخْسرونه طلبا للربح، وهو ربح يكون طبعا على حساب مَن يكتال منهم، كما بيّن ذلك القرآنُ الكريم في فعل المطففين: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [المطففين: 2-3].

وليس لهم قسطاس مستقيم: أي ميزان عدل، كما قال أغلب المفسرين[2]، وهو علامة واضحة أنهم قوم فقدوا الميزان الأخلاقي والعقدي، وهذا أمر يمكن اعتباره نتيجة لما حصل مع قوم لوط ـ عليه السلام ـ، فالفطرة الإنسانية هي المؤشر الذي يدل الإنسانَ على صواب فعله أو خطئه، إنها الميزان الذي يقيس المرء به الأمور، فإذا انتكست الفطرة، وانقلبت الموازين كان لا بد أن تنهار معها كل الموازين الأخلاقية والاجتماعية والعقدية، وحينها يستسلم الإنسان لأطماعه ورغباته، وبعد شهوة الجنس التي ابتُلي بها قوم لوط، ها هم قوم شعيب ابتُلوا بداعٍ لا يقلّ قوة وسطوة، ألا وهو داعي المادة والمنفعة.

كما اعتدنا أن نرى في هذه السورة، لم يكن المشكل يوما في الداعي أو الدافع من حيث هو وازع نفسي مفطور في الإنسان، بل المشكل كان دوما في تجاوز الحدود، وعدم الانضباط بميزان الاعتدال والقصد، وهو الأمر الذي جعله يكون سببا للفساد، بل ورفض أي دعوة للإصلاح والتغيير.

فالحرص على المنفعة ليس أمرا مذموما في نفسه، لكنه يصبح كذلك حين يَزَع الإنسان على أخذ ما ليس له، والاعتداء على حقوق الآخرين، وبخسهم أشياءهم.

ثم ختم شعيب قوله: ﴿ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ [الشعراء: 183]، بقطع الطريق، ونهب أموال المارة، كما بيّنَتْه سورة الأعراف لما قال لهم نبيهم شعيب: ﴿ وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗا ﴾ [الأعراف: 86]، لأن حرصهم على المادة، وتكالبهم عليها لم يجعلهم يطففون الكيلَ والميزان فقط، بل حملهم حتى على نهب أموال الناس، وقطع الطُرُق عليهم.

كما أن فيه إشارة أن تطفيف الكيل، وتخسير الميزان هو سبب للفساد والإفساد، ويورث الحقد والعداوة، ويجلب سفك الدماء، لأن المال عزيز على الإنسان الذي قد يكون أحيانا مستعدا للقتل إذا سُلب منه ماله.

---

[1]. سيد قطب، في ظلال القرآن، ص 2615.

[2]. انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 19 / ص 185.

وبما أن القوم قد بلغوا من الإفساد حدَّه، ومن العناد أشدّه عاقبهم الله تعالى عقابا عظيما، قال سبحانه: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ ﴾ [الشعراء: 189]، جاء في تفسير ابن كثير ـ كما عند غيره ـ" جعل عقوبتهم أن أصابهم حرّ شديد جدا مدة سبعة أيام لم يكنّهم منه شيء، ثم أقبلت إليهم سحابة أظلّتهم، فجعلوا ينطلقون إليها يستظلون بظلّها من الحر، فلما اجتمعوا كلهم تحتها أرسل الله تعالى عليهم منها شررا من نار ولهبا ووهجا عظيما، ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ ﴾ [الشعراء: 189] "[1].

وهذا العقاب الإلهي فيه معنى رمزي بليغ جدا، وهو أنهم اغترّوا بالسحابة، فظنّوها نجاتهم من الحر، لكن كان فيها هلاكهم، كذلك حرصهم على المادة لم ينفعهم في شيء إلا أنه جرّهم إلى الظلم والإفساد في الأرض، وسلب حقوق الناس، وهذا ما أحاق بهم العذاب، وأحلّ بهم سخطَ الله تعالى وعقابَه الأليم.

في ختام جولتنا مع هذه السورة المباركة، لا بد لنا من تسجيل ملاحظات نراها ضرورية حتى تكتمل الصورة العامة للسورة.

أولا: يأمر الله تعالى نبيه الكريم بالجهر بالدعوة، ثم ينزّل عليه هذه السورة التي في مطلعها قوله تعالى "﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [الشعراء: 3] "، لعلك يا محمد قاتل نفسك ومهلكها إن لم يؤمن قومك بك، ويصدقوك على ما جئتهم به"[2]، فأنت مأمور بالدعوة، وليس مطلوبا منك أن يكونوا مؤمنين، فلا حاجة لأنْ تبخع نفسك، ولا أن تُكَلِّفَها من أمرها رهقا.

ثم عرضَت له السورة نماذج لأنبياءَ سابقين له في ميدان الدعوة، وما لاقَوه من معوّقات ومصاعب، ليستشعرَ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن إعراض قومه عنه، وصدّهم إياه ليس شخصيا منه ولا منهم، بل هو أمر طبيعي حدث مع مَن كان قبله، فكل دعوة إلى الحق والإصلاح أو لمجرد التغيير لا بد أن تعارَض وتُرفَض إما بسبب سلطان حُكم (فرعون)، أو تسلّط عادة وعرف (قوم إبراهيم)، أو شهوة مكانة (قوم نوح)، أو قوة مُطْغية (قوم عاد)، أو ترف مُلْهٍ (قوم ثمود)، أو انقلاب في الفطرة (قوم لوط)، أو فقدان ميزان الأخلاق (أصحاب الأيكة).

والعلة الأساس ـ كما أشرنا في مبدأ البحث ـ ليس مجرد تسلية النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، بل المراد تبصيره أن هذه الموانع هي طبائع بشرية تتكرّر مع كل دعوة إصلاح، فلا حاجة لأن تكلّف نفسك فوق طاقتها، كما أنه يجب التعامل مع هذه النوازع البشرية بحكمة وصبر ورحمة مع المخاطَبين.

ثانيا: أمر آخر لا بد من الوقوف عنده، هو أن الموانع التي حالت بين أولئك الأقوام وبين قبول الحق هي في حقيقتها نوازع بشرية وجبلات إنسانية فُطر عليها الخلق، فالسلطة والعرف والمكانة والقوة والمتعة

[1]. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج 6/ 144.

[2]. الطبري، جامع البيان، ج 17/ ص 543.

والشهوة والمنفعة لو تأمّلناها لرأينا أنها دوافع محايدة في الأساس، وليست أمورا سيئة في ذاتها، بل لولاها لما استمرت الحياة، ولما كان لها وجود.

فالمشكلة لم تكن يوما فيها من حيث هي دوافع بشرية، بل المشكل كان دوما في طغيان هذه النوازع، وتجاوزها الحدَّ والقصدَ، وعدم قدرة الإنسان على السيطرة عليها، فسيطَرَت هي عليه، وملكَت عليه أمره.

ومن هنا نفهم لماذا كان لا بد أن يكون التوحيد هو أساس كل دعوة إلى الإصلاح، فالتوحيد هو الأساس الذي يضبط هذه النوازع، ويكسر شِرَّتها، ويوجّهها نحو الخير والبرّ، ولا يتركها تقود الإنسان نحو الشر والمهالك، وكل دعوة إلى الإصلاح لا تُبنى على أساس التوحيد لن يكون لها استمرار ولا استقرار، بل سرعان ما تعود تلك النوازع للظهور، بل للسيطرة مجددا على الإنسان، وعلى المجتمع بأسره.

10. خاتمة

ونختم هذا البحث بتسجيل جملة من النتائج التي توصل إليها الباحث:

1 - كل دعوة إلى الإصلاح أو للتغيير لا بد أن تواجَه بالرفض والصد والهجوم، وهذا طبيعي في البشر الذين يميلون دوما إلى عدم تغيير الأمور.

2 - عرضت السورة نماذج لأقوام رفضوا دعوة الحق التي جاءهم بها الأنبياء، هذه النماذج تجسّد أهم الموانع التي تقف حائلا بين الإنسان وقبول الحق رغم وضوحه وبادهته.

3 - ظهر لنا في هذه السورة أسلوب الأنبياء الحكيم، ومنطقهم الفذّ في محاورتهم أقوامهم، ومناقشتهم فيما يمنعهم من الإيمان، ولم يلجأ الأنبياء الكرام إلى التنظير الجاف والأسلوب التقريري النظري، رغم اعتقادهم المطلق بصحة ما يقولون، وبضلال وفساد ما يعتنقه أقوامهم من كفر وشركيات.

4 - ألمحنا إلى أن التوحيد الذي كان أساس دعوة الأنبياء جميعا هو الضامن الوحيد ألا تطغى النوازع البشرية، وألا تتجاوز حدودَها المقرَّرة، ووظائفها المقدَّرة، وبدونه - أي التوحيد - يبقى الإنسان رهينا لهذه الدوافع التي سرعان ما تسيطر عليه.

5 - خطورة هذه الموانع أن أصحابها تمسّكوا بها، ورفضوا الحقَّ لأجلها، وهذا أمر أدى إلى إهلاكهم وفنائهم، وإنزال عذاب الله تعالى عليهم[1].

11. قائمة المراجع

- الآلوسي، محمود، شهاب الدين أبو الثناء الحسيني، روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، لبنان دار إحياء التراث.
- - البيضاوي، عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تقديم: محمد المرعشلي، لبنان، دار إحياء التراث العربي.

[1] . باستثناء قوم إبراهيم (عليه السلام).

- .الرازي، فخر الدين بن ضياء الدين، 1401 هـ/ 1981م، مفاتيح الغيب، لبنان، دار الفكر.
- أبو السعود، محمد بن محمود العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لبنان، دار إحياء التراث العربي.
- سعيد، جودت، 1414 هـ/ 1993م، اقرأ وربك الأكرم، لبنان، دار الفكر المعاصر.
- الشوكاني، محمد بن علي بن محمد، 1992م، فتح القدير، الجامع بني فنّيْ الرواية والدراية من علم التفسير، تحقيق: عبد الرحمان عميرة، دار الوفاء.
- .الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب، 1422 هـ/ 2001م، جامع البيان في تأويل آي القرآن، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، المملكة العربية السعودية، دار هجر.
- ابن عاشور، محمد الطاهر، 1984م، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر.
- ابن عطية الأندلسي، أبو محمد عبد الحق بن أبي بكر، 1423 هـ، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، المملكة العربية السعودية، دار ابن حزم.
- القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، 1427 هـ/ 2006م، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، لبنان، مؤسسة الرسالة.
- قطب، سيد إبراهيم حسين الشاذلي، 1972م، في ظلال القرآن، مصر، دار الشروق.
- ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر الدمشقي، 1419 هـ/ 1998م، تفسير القرآن العظيم، تعليق: محمد حسين شمس الدين، لبنان، دار الكتب العلمية.
- ابن هشام، أبو محمد عبد الملك بن أيوب الحميري البصري، 1410 هـ/ 1990م، السيرة النبوية، تعليق: عمر عبد السلام تدمري، لبنان، دار الكتاب العربي.

Sources and references

- Al-Alusi, Mahmoud, Shihab al-Din Abu al-Thana al-Husseini, The Spirit of Meanings in the Interpretation of the Qur'an and the Seven Mathanis, Lebanon, Dar Ihya al-Turath.
- Al-Baydawi, Abdullah bin Omar bin Muhammad Al-Shirazi, Lights of Revelation and Secrets of Interpretation, presented by: Muhammad Al-Maraashli, Lebanon, Arab Heritage Revival House.
- Al-Razi, Fakhr al-Din bin Diya al-Din, 1401 AH/1981 AD, Mafatih al-Ghayb, Lebanon, Dar al-Fikr.
- Abu Al-Saud, Muhammad bin Mahmoud Al-Emadi, Guiding the Sound Mind to the Merits of the Holy Book, Lebanon, Dar Revival of Arab Heritage.
- Saeed, Jawdat, 1414 AH / 1993 AD, Read, and Your Lord is Most Generous, Lebanon, Dar Al-Fikr Al-Mu'astamir.
- Al-Shawkani, Muhammad ibn Ali ibn Muhammad, 1992 AD, Fath al-Qadeer, Al-Jami' Bani Fani Al-Riwayah wa Al-Daraiyah Min Al-Tafsir, edited by: Abd al-Rahman Amira, Dar al-Wafa'.

- Al-Tabari, Abu Jaafar Muhammad bin Jarir bin Yazid bin Katheer bin Ghalib, 1422 AH / 2001 AD, Jami' Al-Bayan fi Interpretation of the Verse of the Qur'an, edited by: Abdullah bin Abdul Mohsen Al-Turki, Kingdom of Saudi Arabia, Dar Hijr.
- Ibn Ashour, Muhammad Al-Taher, 1984 AD, Tahrir and Enlightenment, Tunisian Publishing House.
- Ibn Atiyah Al-Andalusi, Abu Muhammad Abd al-Haqq ibn Abi Bakr, 1423 AH, the brief editor in the interpretation of the Noble Book, Kingdom of Saudi Arabia, Dar Ibn Hazm.
- Al-Qurtubi, Muhammad bin Ahmed bin Abi Bakr, 1427 AH / 2006 AD, Al-Jami' fi Ahkam Al-Qur'an, edited by: Abdullah bin Abdul Mohsen Al-Turki, Lebanon, Al-Resala Foundation.
- Qutb, Sayyed Ibrahim Hussein Al-Shazly, 1972 AD, In the Shadows of the Qur'an, Egypt, Dar Al-Shorouk.
- Ibn Kathir, Imad al-Din Abu al-Fida Ismail bin Omar al-Dimashqi, 1419 AH/1998 AD, Interpretation of the Great Qur'an, Commentary: Muhammad Hussein Shams al-Din, Lebanon, Dar al-Kutub al-Ilmiyyah.
- Ibn Hisham, Abu Muhammad Abd al-Malik bin Ayyub al-Himyari al-Basri, 1410 AH/1990 AD, Biography of the Prophet, Commentary: Omar Abd al-Salam Tadmurri, Lebanon, Dar al-Kitab al-Arabi.